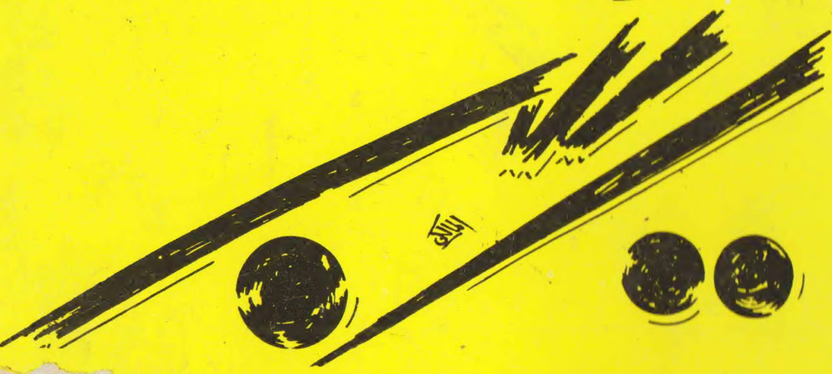






كمال السيّد

رواية



ولئن جرّت عليّ الدواهي يا يزيد مخاطبتك

إني لأستصغر قدرك

زينب

سيد، كمال، ١٣٣٦-
امرأة اسمها زينب/ المؤلف كمال السيد.- قم: مؤسسة انصاريان، ١٤٢١ق.= ٢٠٠٠ =١٣٧٩.
٧٩ص.
فهرستنويسي براساس اطلاعات فيپا.
چاپ دوم: ١٣٧٩
ISBN 964-438-105-x
١. زينب بنت علي (س)، - ٦٢ق. - - سرگذشتنامه. الف. عنوان. ب.عنوان: زينب.
BP٥٢/٢/ ٨ الف ٩س
٢٩٧/٩٧٤
كتابخانه ملى ايران
٧٤/٥٨٣٦م

اسم الكتاب: امرأة اسمها زينب

المؤلف: كمال السيد

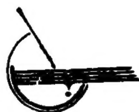
الناشر: مؤسسة انصاريان للطباعة والنشر - قم

الطبعة الثانية: ٢٠٠٠ - ١٣٧٩

المطبعة: صدر الكمية: ٢٠٠٠

حجم الكتاب: متوسط عدد الصفحات: ٨٠

شابك ٩٦٤-٤٣٨-١٠٥x



مؤسسة انصاريان للطباعة والنشر

ص.ب. ١٨٧

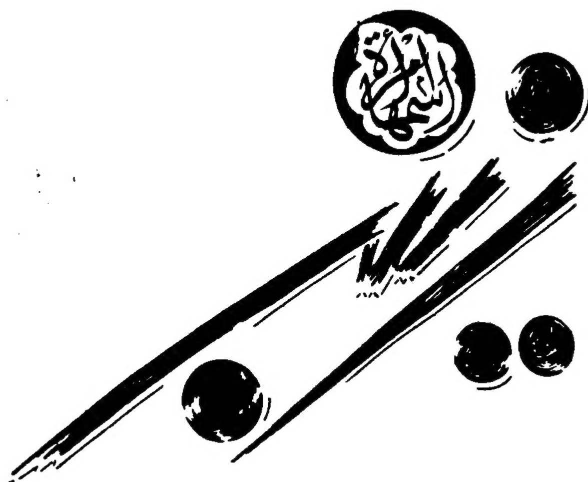
قم - شارع الشهداء - فرع ٢٢

جمهورية إيران الإسلامية

هاتف: ٧٤١٧٤٤ ٢٥١ ٩٨++ فاكس: ٧٤٢٦٤٧

البريد الإلكتروني: ansarian@noornet.net

كمال السيّد



رواية

الإهداء

إلىٰ روح الله

في زمن يلفّه الضباب والدخان.. في زمن الشيطان.. في زمنٍ رسَمَ الرعبُ ملامحه في المدن الخائفة.. العالم مستسلم بين أنياب تنزّ صديداً.. في هـذا الزمن اليائس، تمخّضت الأرض فأنجبت «روحَ اللّه».

وجْهٌ يحمل شارات الانبياء.. وامتدادات السماء: سيفاً.. قرآنـاً.. صـهيلاً مخزوناً من أرض كربلاء.. من لحظة عاشوراء.

وتُشرق شمس جديدة تغمر الدنيا بالدفء والنور والأمل.. وترفع النوقُ في الصحارىٰ رؤوسها.

هناك في الأفق البعيد، قافلة قادمة يقودها وارث الحسين.

السلام عليك يا روح اللّه، وعلىٰ الأرواح التي حلّت بفنائك.

سرعان ما رحلت عنا، بقلبك المطئن المفعَم بالسلام.. بروحك الطاهرة.. بأملك الكبير في حياةٍ أبديةٍ لانكَد فيها ولا عناء.

كيف نخبّئ دموعنا في درْبك اللاحب. سنُحرق كلَّ أَشرعتنا، ونغرق فـي شواطئك..

ايها المسكون بهاجس الرحيل.. المبهور بالسفر.. ايها القادم الينا من اعماق التاريخ والانسان.. ايها المضمخ بعبير النبوّات.. يا بشارة هذا العصر.

عندما اشرقت على الدنيا بدأ عصر الزوابع.. الغيوم المخزونة بالرعود تتحشد فتشعل البروق، وتسيل أودية بقدر.

السلام عليك يا روح الله .. ايها القادم من رحم كربلاء؛ جواداً ينبعث من أعماق رمال الصحراء.. صوتاً فيه انغام الزبور.. تراتيل التوراة.. بشارة الانجيل.. وآيات القرآن العظيم.

السلام عليك يا روح الله ..

ايها الروح الذي حطّم اصنام الطغاة.. ايها القلب الذي اصبح نبعاً للحياة، وطريقاً للنجاة.

مذ رأيناك رأينا آية الله .. معجزات الانبياء. في قبضتك عصا موسىٰ تنسف سحر الشياطين.. فأس ابراهيم تهشم وجوه الآلهة المزيّفة. في عينيك بريق الحسين.. والجراح التي هزمت سيوف القبائل.

ما يزال حضورك قوياً رغم غيابك.. أيها الشاهد الغائب، والغائب الشاهد.. قبرك يرفض صمت المقابر.. وصمتك العجيب يتحدث بلغة مدهشة ابلغ من كل ابجديات الدنيا.

أنا لا اصدق خرافة موتك.. فالذين التحقوا بقافلة الحسين لن يموتوا.. لقد حطّموا جدران الزمن الصدئة.. اكتشفوا سرّ الخلود.

باقة ورد اقدمها بين يديك يا سيدي، و سلام عليك في العالمين.

كمال السيد

1

جمحت الفرس... رمحت... ارتفع صهيلها عالياً يملأ الآفاق... لقد عانق الفارس الذي دوّخ القبائل... عانق الأرض... توسّد رمال الصحراء... أفناه الظمأ... وأعياه نزف الدم، والفرات يجري متلويّاً تتدافع أمواجه كأنّه بطون الحيّات.

جالت الفرس.. حمحمتْ وهي تقترب منه. راحت تمرّغ ناصيتها بالدماء الثائرة.. تلوّن ذرّات الرمل الملتهبة بلون الشفَق الحزين.

هتف رجلٌ من القبائل... رجل أسكرته نشوة القتل:

ـ دونكم الفرَس. انّها من جياد خيْل النبي.

مثل دوّامة ما لها من قرار، دارت الخيل حولهاالفرس تقاتل بضراوة.. تدفع عنها غائلة القبائل، كما لو أن روح السبط قد سكنت

أعماقها.

أما هو فقد توقّف ليستريح فوق رمال كربلاء.

مالها القبائل تشتعل حقداً.. تضطرم غيظاً.. تتفجر في أعماقها شهوة الثأر.

ثارت الرمال تحت حوافر الخيل، وعجزت الذئاب من كبح جماح فرس ثائرة كان صاحبها قد التوىٰ بـه السرج، فـانسربت روحـه الدافئة تلتقط أنفاسها من بين ذرات الارض...

صرخ الرجل الّذي يحلم بكنوز الري وجرجان:

ـ دعوها لننظر ما تصنع.

انحسرت عنها الخيل.. نظرت الىٰ الافق البـعيد، ثم لوت رأسهـا باتجاه آخر الاسباط.

ما يزال غافياً فوق الرمال ينوء بنفسه.. قلبه ينزف دماً؛ ودمـاء القلب ترسم طريقها فوق الأرض نهراً صغيراً يكاد سنا نوره يضيء التاريخ.

خفت زعيق القبائل... وتقدّمت الفرس نحو سبط النـبي.. شمـتـه.. ملأت رئتيها من عبير النبوّات.. أطلقت صهيلاً مدوّياً وهـي تـركل الأرض.. تريدها أن تستيقظ.. أن تهتزّ، وتتزلزل تحت أقدام الذين اغتالوا الحرّية وطعنوا السلام.

انطلقت الفرس نحو خيام قافلة عصفتْ بها الريح من كل مكـان.
كانت ما تزال تصهل عالياً.. ما تزال كلماتها تتردد في سماء التاريخ.

ـ الظليمة الظليمة من أمّة قتلتْ ابن بنت نبيّها.

لقد انتهىٰ كل شيء، ومرّت العاصفة الهوجاء.. ملأت الرمال دماء ودموعا.. والفرات ما يزال يجري.. تتدافع أمواجه نحو البحر البعيد.

يمّمت الفرس وجهها شطر الفرات المسافر في مجـاهل الصـحراء.. اقتحمت أمواجه المتدافعة، وغمرتها الأمواج، وكان الحصىٰ المـتناثر فوق الشواطئ يصغي لأنين خافت يشبه حمحمة فرس حزينة.

وتألقت في أعماق النهر مآذن وقباب وقوافل مسافرة.

هناك في القيعان الخفية تسطع النجوم، ويغفو القمر بسلام، ويمتزج الصهيل الكربلائي مع المياه المتدافعة صوب البحر.

وتغفو الفرس في أحضان الطين المعطور بعد يوم عصيب.

وفي المساء، عندما بدا نخيل الشواطئ كأهداب حورية شهيدة، فقَد الفرات مذاقه العذب، فاذا هو أُجاج يلفظه الظمآن كما لو كان مترعاً بملح الصحراء.

وعندما مرّت الغيوم، شاهد بعضُهم غيمةً بيضاء تشبه فرساً مجنّحة تشقّ طريقها في الفضاء الأزرق.. ترسم للأجيال طريق الحرّية.

2

تراقصت ألسنة النار المجنونة وهي تلتهم خيام القافلة... بدتْ كشَيْطانٍ يتميّز من الغيظ.

فرّت النسوة والأطفال هائمين في وجه الصحراء، وقطعان الذئاب تجوس خلال الخيام كريحٍ مجنونة.

هبّت القبائل تسلب وتنهب، وتحوّلت تلك القطعة من أرض اللّه الى مسرحٍ رهيبٍ، وقد ظهر ابليس ينفخ ويصفر.. يسخر من آدم.. وبدا آدمُ حزيناً علىٰ فردوسه المفقود.

وكانت امرأة اسمها زينب تتألّق وسْط الناس... ترتل نداء السماء: يا نار كوني برداً وسلاما.

تقدمتْ نحو الشمس التي كُوّرت.. كانت تتنفس روحَ علي..

ترتدي حلّة أيوب النبي.

تقدمت نحو آخر القرابين السماوية.

اختفت الزهور والرياحين، وظهرت الاشواك حادّة كأنصال السكاكين.. ملأت الطريق.. الطريق الذي يؤدي الىٰ الحسين.

قالت زينب وهي تجثو أمام جسد ممزَّق:

ـ الٰهي تقبّل منّا هذا القربان!

نهضتْ تلملم آلامها..تبحث عن أطفال ونسوة فرّت مذعورة كطيور هاربة من سفن بعيدة غرقت.

العيون الحالمة والقلوب الصغيرة فرّت خائفة. وكان «الرضيع» ما يزال غافياً مصبوغ النحر بلون الأرجوان.

عواء الذئاب يمزّق وداعة الرياحين. واستحالت الاشياء الخضراء الىٰ رماد تذروه الرياح.

كل شيء بات يهتزّ بشدّة.. الموجودات تتأرجح كما لو أن زلزالاً ضرب الأرض، فبدت مجنونة، وهي تمخر غبار الكون.

آن للقافلة أن تستأنف رحلتها، وقد ظهرت امرأة ترتدي صبر الانبياء.. عنفوان الرسالات.. وكان اسمها زينب...

آن للقافلة أن ترحل.

رفعت النوق أثقالها... وانتشلت سفن الصحراء مراسيها...

وبوصلة التاريخ تشير الىٰ المدينة المشهورة بالغدر.

ومن بعيدٍ لاحت الكوفة ذليلةً خاويةً علىٰ عروشها.

قالت زينب وهي تستقي صبر الحسين:

-لن يموت مَن رأسه فوق الرمح... انظر انه يرتل سورة الكهف.

قال فتى عليل أفلَت من أنياب الذئاب:

-انهم يقتلون الحرّية.. والانسان.

-الروح العظيمة لا تعرف الموت.. انهم يرفعونها عالياً فوق ذرىٰ الرماح.

وأردفت المرأة المتوشحة بالصبر:

-انظر يابن أخي سندخل الكوفة.

-يا عمتي اننا ندخلها اسرىٰ.

-بل فاتحين.. وسينجلي ذلك ولو بعد حين.

-وهذه الحبال وقيود الحديد.

-ستلتفّ حول أعناق الذين غدروا. انهم لا ايمان لهم. صبراً يا بقية جدي وأبي واخوتي، فوالله ان هذا لعهد من الله الىٰ جدّك وأبيك، ولقد أخذ الله ميثاق أناسٍ لا تعرفهم فراعنة هذه الارض، وهم معروفون في أهل السماوات.. انهم يجمعون هذه الجسوم المضرّجة فيوارونها، وينصبون بذاك الطف علماً لا يُدرس أثره.

3

عصف الأرق بأمّ سلمة... غادر النوم عينها الساهرتين... تراقب النجوم وهي تومض من بعيد.

مذ غادر الحسين الحجاز والرؤيا لا تفارقها

مذ رحل السبط الىٰ ارض السواد، وهي ترىٰ النبي حزيناً مكتئباً.

وعندما تنحسر الرؤيا، تتذكر حزن الحبيب يوم فقَد ابنَه ابراهيم.

عانقه ثم قال ـ وعيناه تدمعان: انّا بك لمحزونون.

ولكن حزنه الآن حزنٌ عميقٌ.. كبئر سحيقة.

لم تشاهده بهذه الحال أبداً.

رأت شعره المتموّج تموَّجَ الصحارىٰ. رأته أشعث، ورأت وجهه القطني المشرَّب بحمرة الشفق مغبرّاً، وعلىٰ رأسه التراب.

هدّ أمَّ المؤمنين القلقُ. كانت تدرك في قرارة نفسها أنّ شيئاً رهيباً قد وقع، فالحسين في أرضٍ طالماً غدرتْ بأبنائها.

أغمضت عينيها الواهنتين، فرأت الحبيبَ مرّة أخرىٰ. أفزعها منظره.. كان ينكت التراب عن رأسه، وبدا شعره أشعث مغبرّاً:

ـ مالي أراك اشعث مغبرّاً يا رسول اللّه.

أجاب آخر الأنبياء، وعيناه تدمعان:

ـ قُتل ولدي الحسين، ومازلت أحفر القبور له ولأصحابه.

انتهبتْ أمّ سلمه من الحُلم.. وجدتْ نفسها تبكي بصوت يشبه نشيج الميازيب في مواسم المطر.

البكاء يشقّ طريقه في الليل.. يتسلّل من خلال الظلام الذي يغمر المدينة قبل الساعة التي ينفلق فيها الفجر.

النجوم ما تزال تومض كقلوبٍ واهنةٍ اجهدها النبض.

أسرعت أمّ سلمة الىٰ قارورة فيها قبضة من ترابٍ كان جبريل قد أحضرها من شطآن الفرات.

كانت القارورة تفور دماً عبيطاً.. كجُرح بعيدَ الغوْر.. بركان من دم ثائر.

ـ واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة... اليوم مات رسولُ اللّه... فاطمةُ الزهراء.

غبرة كئيبة لفّت المدينة التي فقدتْ مجدها...

ها هو أبو سفيان يقود جيوشَ الشرك مرّة أخرىٰ، وقد عاد ليثأر من بدر.. يثأر لأبي جهل، وأمية، والوليد، وهبل، واللات والعزىٰ.

ـاين أنت يا رسول اللّٰه؟. هلّم الىٰ سبطك تتخطّفه سيوف القبائل.. هلّم لترىٰ ما يفعل طلقاؤك.. لقد سرقوا منبرك.. ينزّون عليه قردة وخنازير.

وها هم اليوم يمزّقون قلبك.. يمزقون صدر الحسين!

انهم يطعنون المزن في السماء.فيا أرض اعطشي.. يطفئون وهجة الضياء. فيا شمس ارحلي.. يسحقون الورد والريحان. فيا أرض اهمدي.

وحين غاب الحسين حلّ زمن القهر، وبدت خيول العرب ذليلة.. ذليلة كصبايا السبْي.

ومضت أمّ سلمة تحثّ الخطى الى رسول اللّٰه.. تعزّيه في ريحانته.. أمّا الزهراء فما يزال مثواها مجهولاً يرسم علامة سؤال كبير يستفهم التاريخ.

استيقظت المدينة خائفة تترقّب.. أطلّت عيون زائغة..

الأفاعي التي فرّت من مكّة ظهرتْ رؤوسها في دمشق... فحيحها يملأ الفضاء.. يكاد يخنق كلمات السماء.

وانبعث ابو جهل يكرع كؤوس الخمر، ويعربد.

وفرّ بلال وعمّار وسلمان.. كانوا يبحثون عن رسول اللّٰه، فلقد حمي الوطيس.. وطيس المعركة.

4

الغروب الحزين يقرض منازل المدينة المشهورة بالغدر، توهّجت ذرىٰ النخيل بحمرة تشبه الجمر، فبدتْ كجراح متألّقة.

دخلت القافلة التي جاءت علىٰ قدَرٍ العاصمة الدارسة.

كمومس عجوز بدت الكوفة ذلك الغروب.

احتشدت جموع مذهولة حول القافلة العجيبة.

سألت امرأة كوفية ربّما لتمسّ الجراح:

ـ من أيّ الأسارىٰ أنتم؟

وجاء الجواب الصاعقة:

ـ نحن أسارىٰ آل محمد.

وأومات بنت محمد الىٰ الناس، فسكنت الأُصوات، وبلغت القلوب

الحناجر.

وبدتْ وهي فوق ناقتها ملاكاً قادماً من السماء.

سكت الناس، وتوقّف التاريخ يصغي الىٰ كلمات عليّ تنبعث من جديد:

- اما بعد يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر. أتبكون فلا رقأت الدمعة، ولاهدأت الرنّة. انما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، تتّخذون أيمانكم دَخلاً بينكم. ألا وهل فيكم الا الصلف النطف والعجب والكذب والشنف، وملق الاماء، وغمز الاعداء. كمرعى علىٰ دمنة أو كقصة علىٰ ملحودة. ألا بئس ما قدّمت لكم انفسكم أن سخِط اللّٰه عليكم وفي العذاب أنتم خالدون.

كلمات تشبه الصواعق. وبدت الجموع كشواهد قبور دارسة تحترق.

كان الصمت ما يزال جاثماً فوق المكان كغراب اسطوري، وكانت الكلمات وحدها تدوّي في أذن التاريخ:

ـ أتبكون وتنتحبون، اي واللّٰه فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها... فتعساً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي، وتبّت الايدي وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من اللّٰه ورسوله، وضربت عليكم الذلّة والمسكنة ... ويكلم يا أهل الكوفة! أتدرون أي

كبد لرسول اللّٰه فريتم؟ وأي كريمة له أبرزتم؟ وأي حرمة له انتهكتم، وأي دم له سفكْتم؟! لقد جئتم شيئاً إدّاً.. تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشقّ الارض، وتخرّ الجبال هدّاً... لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء كطلاع الأرض وملء السماء. أفعجبتم أن مطرت السماء دماً، ولعذاب الآخرة اخزىٰ، وأن ربّكم لبالمرصاد.

كانت الكلمات تتدفّق قويّة كإعصار فيه نار، وكان صهيلٌ غاضب يتردّد من بعيد.. قادماً من أرض كربلاء... .

ما يزال الحسين يقاتل. فالحسين لا يعرف الموت. لقد كشف سرّ الخلود، ومزّق بسيفه حجب الزمن. وها هي زينب تشير بيدها نحو الدرْب.. الدرب الذي خطّه الحسين.

تساءل صوتٌ مدهوش:

ـ ولكن الحسين ما يزال في الرمضاء.. جسداً بلا رأس!!

ـ مجرّد إغفاءة.. وسينهض الفارس الذي دوّخ القبائل.. سيلمع سيفه كبروق السماء، وسينبعث جواده من مياه الفرات، وعندها ستشتعل المعركة من جديد... .

كربلاء معركة متجدّدة في كل أرض مظلومة وفي كل زمان جائر. وستغدو كلّ بقعة من دنيا اللّٰه كربلاء، وسيمتدّ يوم عاشوراء ليشمل كل الزمن. سيصبح اطول يوم في التاريخ، بل سيستوعب التاريخ كلّه.

ـ ها هي زينب.. ها هي بنت علي.

هتف حرّاس القصر، وهم يتطلّعون الىٰ قافلة قادمة.. قافلة تحوطها ذئاب غبراء.

ها هي زينب تتقدّم بخطىً واثقة.. تدخل القصر.. ينبض في صدرها قلب عليّ، ويتألق في عينيها بريق الحسين.

وتتفتّح الأبواب أمام موكب من الأسرىٰ.. تطفح فوق وجوههم العزّة والإباء. العيون النفّاذة تخترق أستار الزمن، تنظر الىٰ ماوراء الأيام.... .

لقد سقط يزيد وابن زياد.. تحطّمت عروشهم، وتهاوت قصورهم. إنهم لم يعودوا سوىٰ جثث متعفّنة غادرتْها الروح.

أناخت القافلة رحلها في قصر يكاد يميد بأهله.. قصر تحرسه رماح ونبال.

5

جلس الأرقط متربعاً علىٰ عرشه. عيناه تقدحان شرراً، ومازال سكرة الليل ترسم آثارها فوق وجهه... وفي عينيه لاحتْ كؤوس من خمرة ودماء.

كان يتصفّح وجوه «أسراه». توقّف عند أحدهم. تسمّرت عيناه وارتدّ بصره خاسئاً وهو حسير، فهؤلاء لا تلوح عليهم سمات الأسْر أو القهر.

نظرات متحدّية تصفعه من كل صوب. وكانت ذلّة الأسْر تـلوح فوق حرّاسه وجلاوزته.

سأل الأرقط وقد غاظته هيئة «الأسرى»:

ـ من هذه المتنكرة؟!

كان الصمت المشوب بالاحتقار صفعة أطارت بقايا نشوةٍ تطوف في رأسه.

لم تجب المتنكرة.

حاول أحد الجلاوزة انقاذ هيبة سيّده، فتمتم:

ـ انها زينب... زينب ابنة علي.

لمعت في عينيه شهوة الانتقام:

ـ الحمد لله الذي فضَحكم وقتَلكم وأكْذَب أُحدوثتكم.

وانتفضت المرأة الزوبعة:

ـ الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه «محمد» وطهّرنا من الرجس تطهيرا. وانما يُفتضح الفاسق ويكذّب الفاجر، وهو غيرنا.

قال الأرقط متمادياً في شماتة ونفاق:

ـ كيف رأيتِ فعل الله بأهل بيتكِ؟

أجابت بنتُ محمدٍ وهي تنظر الىٰ ماوراء الحوادث:

ـ ما رأيتُ الاّ جميلا. هؤلاء قومٌ كتب اللّهُ عليهم القتْل فبرزوا الىٰ مضاجعهم، وسيجمع اللّهُ بينك وبينهم فتحاجُّ وتخاصم، فانظر لمن الفلج يومئذ. ثكلتك أمّك يابن مرجانه.

لم تنتَه المعركة بعد. هناك جولاتٌ أخرىٰ.. جولات مريرة عنيفة.

كاد يتميّز غيظاً، وبدا كأفعىٰ رقطاءَ تهمُّ بابتلاع ضحيّتها.

زاغت عيناه تطاير منها شرر كشَرر الجحيم المستعرة، وثار بركان حقدٍ في أعماقه، فنظر الى أحد جلاوزته.

كلين رأس الحسين صامتاً، وكان صمته المحيِّر يتكلّم بلغة عميقة أو صرخة مدوّية تكاد تعصف بالقصر وساكنيه.

كفحيح حيّة جاء صوت الأرقط:

لقد اشتفيت من الحسين والعصاة المرَدة من أهل بيتكِ.

تساءلت المرأة المقهورة: كيف أمكن لخنزير أن يسرق منابر الصدّيقين، تمتمت بحرقة:

ـ لعمري لقد قتلتَ كهلي، وقطعتَ فرعي واجتثثتَ أصلي، فإن يشفِكَ هذا فقد اشتفيت.

أدارت الافعىٰ رأسها نحو فتى عليل.. فتىً ادّخره القدر لزمن آخر.

سأل الارقط: ما اسمك؟

اجاب الفتىٰ باعتزاز: عليّ بن الحسين.

ـ أو لم يقتلِ اللّهُ علياً؟!

ـ كان لي أخ أكبر منّي يُسمىٰ علياً، قتله الناس.

ـ بل قتله اللّه.

ردَّ الفتىٰ؛ والحكمة تتفجّر من جوانبه:

ـ الله يتوفّىٰ الأنفسَ حين موْتها، وماكان لنفس لتموت الاّ بأذن الله.

زاغت عينا الأرقط غيظاً. أشار الىٰ أحد جلاّديه

ـ اضرب عنقه!

هبّت عمته معترضة:

ـ حسْبك يابن زياد من دمائنا ما سفكتَ، وهل أبقيت أحداً غير هذا، فإن أردت قتْله فاقتلني معه.

زاد الفتىٰ من تحدّيه. إنه لا يرىٰ سوىٰ خرائب قصر ولا يرى سوىٰ جثث متعفّنة:

ـ اما علمت أنّ القتل لنا عادة، وكرامتنا من اللّٰه الشهادة؟!

الشهادة ليست موتاً بل خلوداً... الموت ان يتعفّن الإنسان.

والذي يعبر جدار الزمن وأوداجُه تشخب دماً ليس ميّتاً.

لا يموت من يصبغ الأرض بلون الشفَق الدامي.

6

بدا قصر الإمارة وسط الظلمة كغرابٍ يبحث في الأرض.. يـريد نبش قبر قديمٍ عفىٰ عليه الزمن.

وصمت رهيب يسيطر علىٰ زوايا القصر ما خـلا صـوت بـومة ترسل هأهأتها متقطّعة.

كان الأرقط يذرع البهو وبيده كأس. وبدا مخموراً بعضَ الشيء.

وكان «الأبرص» منسحباً الىٰ نفسه، والرجل الذي قـاد القـبائل علىٰ شاطئ الفرات يداعب لحيته الشعثاء، وهو يحـملق في الفـراغ... ينظر الىٰ أحلامه تتبدّد.. تتبخّر.. وصبايا الري وجرجان تفرّ مذعورة بين يديه.

منذ «عاشوراء» والأرقطُ تعصف به الهواجس.. يـنتابه القـلق..

يهبّ من نومه مذعوراً، تطارده الأشباح.. أشباح لا يعرفها.. يتقدّمها رأسُ الحسين علىٰ رمحٍ طويل. اما هو فكان يلهث مبهور الأنـفاس تائهاً في صحراء مترامية مليئة بالأفاعي؛ تمتم بحقد:

ـ ماذا لقيتُ من الحسين؟!

دون شعور سقطت الكأس من يده

رفع الأبرص عينه. كان ينظر بحقد. واستيقظ الرجـل الذي كـان يحلم بالري وجرجان.

شعر الأبرص بحرقة في نحره. منذ أيام وهي تلسعه بنار.

ركض الىٰ برْكة الماء. بلّل نحره، ولكن بلافائدة.

هتف الأرقط ساخراً:

ـ ما تزال تحرقك... أعني قطرات الدم.

صوّب الأبرص عينين متأرجحتين:

ـ لماذا تسخر مني؟ إنها قطرات من نار لا من دماء... صدِّقني إنّني أخلط خمرتي بدماء قتلاي. ولكن هذا الدم كان يختلف. إنه اللـهيب بعينه

قهقه الرجل الحالم:

ـ ولكنك جثمت على صدره كغراب أبقع.

ردّ الأبرص منتشياً:

ـانت لا تدرك اللذة التي شعرتُ بها وأنا أعلو صدر الحسين. كان ربوة من ربيع تفوح منه روائح أطيب من المسك. يابن سعد! لقد ارتقيتُ قمّة المجد.

الأبرص ما يزال منتشياً، أسكرته لحظة الانقضاض.

الرجل الحالم قطع قهقهته فجأة. زاد اتساع عينيه كأنّما ما يزال يراقب مشهداً مثيراً على شاطئ الفرات.

الحسين ما يزال يقاتل الألوف غير عابئ بالسهام والرماح، وسيوف القبائل تحاول أن تتخطفه. اندفع نحو الفرات كزوبعة غاضبة. وبدا الفرات تحت حوافر جواده كأفعىً ذليلة لشدّما هزّه منظر الحسين. أيّ رجل هذا؟!

غطّىٰ وجهه بكفّيه. أراد أن يطفئ اشتعالات مشاهد مضيئةٍ كبروق سماوية.

ما تزال الخيول المجنونة تركض بعنْف، فيتردّد صداها في أعماقه هزّات عنيفة مدمّرة تعصف بأحلامه فتتبدد.

كان الأرقط يراقب صاحبيه من طرْف خفي. أدرك ما يعتمل فيهما.

لوّح بسوطه في الهواء، وصرخ:

ـانني أنفّذ أمْر الخليفة.

7

الليل يغمر الأرض بظلمة حالكة. وبدت الصحراء المترامية إمرأة متّشحة بالسواد حزْناً علىٰ أبنائها. النخيل الذي يحفّ بشطآن الفرات بدا كرماح مركوزة في الرمال.

خُيِّل اليه أنّه يسمع صهيلاً ينبعث من أعماق المياه المتدفّقه..

اقترب أكثر فاكثر.. فكاد يسقط دهْشة... مواكب من شموع تتألّق وأصوات تشبه البكاء.

كان الرجل الأسدي يحدّ النظر.. يريد أن يتعرّف أحدهم، لكن بصره ارتدّ حسيراً.. تقهقر الىٰ الوراء.. سيطرت عليه رهبة المكان.

خُيّل اليه أنه يرىٰ جواداً ينبعث من نهر الفرات. كان الجواد يشبه غيمةً بيضاء تنساب فوق الرمال الناعمة. ورأىٰ رجلاً يستيقظ.. راح

الجواد يمرّغ ناصيته يشمّه ويحمحم بحزن.

نهض الرجل النائم.. مسَح علىٰ رقبة جواده، ثم راح يوقِظ النائمين واحداً بعد الآخر.

استيقظوا جميعاً. كانوا سبعين أو يزيدون.

وهتف الرجل الذي أيقظهم:

ـ أنا الحسين بن علي آليت ألّا أنثني

انتبه الرجل الأسدي.. فرك عينيه. كان الفجر قد لاح من وراء النخيل.. فجْر يشبه الرماد.

وشيئاً فشيئاً تبدّدت الظلمة، ولاحت له اجساد القتلىٰ مقطّعة الرؤوس.. متناثرة هنا وهناك، كنجوم منطفئة.

حلّ اليوم الثالث عشر من محرّم. شمسه كئيبة حزينة. ترسل أنواراً باهتة. تلفح أجساداً مقطّعة الرؤوس، وكانت الريح تعدو كذئبة مجنونة تثير غباراً كدخان الحرائق.

وجاءت نسوة أسديات، ورجال كانوا يبكون بحرقة. وتعالت في الفضاء تأوّهات هابيل، وهو يشكو ظلْم أخيه.

وقف بنو أسد حيارىٰ لا يدرون ما يصنعون.

حاول بعضهم أن يتعرّف القتلىٰ ولكن لا جدوىٰ. حتىٰ «ابن مظاهر» ضاع عليهم.

كانت الاجساد مضرّجة مزّقتها حوافر خيل قاسية.

وجاء فتىً يسعىٰ.. عليه سيماء النبوّات. ووقف بنو اسد مدهوشين، وهو يشير الىٰ الأجسام المجهولة.

ـ هذا جسد أبي

وتمتم وهو يواريه الثرىٰ:

ـ طوبىٰ لأرض تضمّنت جسدك الطاهر... الدنيا بـعدك مـظلمة والآخرة بنورك مشرقة، اما الليل فسهد وأمّا الحزن فسرمد.

ومشىٰ الفتىٰ الىٰ جسدٍ آخر كان مقطوع الرأس واليدين.

فاعتنقه وراح يبكي:

ـ علىٰ الدنيا بعدك العفا يا قمر بني هاشم... سلام عليك من شهيد محتسب ورحمة اللّٰه.

ومرّ النهار، ونكت الفتىٰ يديه من التراب، ونظر الىٰ الفرات. كان يشعر بظمأ شديد...

اغترف من الماء، وهمّ أن يشرب، ولكنه رمّاه بعنف كما لو كان سماً. تذكّر كلّ تفاصيل ملحمة الظمأ، وهي تجري علىٰ شواطئ نهر يمـوج بالمياه.

نهض الفتىٰ وألقىٰ نظرة احتقار علىٰ الفرات، وطفرت مـن عـينيه الدموع وهو يولي ظهره للشواطئ. وبد النهر كئيباً كخيط من الملح. وشيئاً فشيئاً كانت أصوات مناحة بني أسد تخبو في أذنيه، وهو يتخذ طريقه نحو مدينة غدرتْ بأبيه.

8

بدا الجامع الأعظم مكتئباً، كناسك حزين. ورغم الضجة المتصاعدة، فقد بدا مقفراً، وضاعت آيات القرآن بين لغط الكوفيّين الذين تجمهروا في الظهيرة المحرقة.

نزّ الأرقط علىٰ المنبر، وراح ينظر الىٰ الناس باستعلاء. الشرر يتطاير من عينيه كشظايا جحيم مستعرة. هتف بغطرسة وقد فقد السيطرة علىٰ لسانه:

ـ الهمد.. الحمد للّه الذي أظهر الحق وأهله.. ونسر امير المؤمنين يزيد وهزبه، وقتل الكذاب ابن الكزاب الهسين بن علي وشيعته.

ضحك أحدهم بمرارة، وهو ينظر الىٰ هذا الألكن الذي نزّ علىٰ منبر علي.

لقد مضت أيام البلاغة والفصاحة. مضت دون عودة، وورث المنبر قردةٌ وخنازير يسومون الناس سوءَ العذاب.

كان الصمت يخيّم فوق الرؤوس التي أطرقت ذلاًّ...

فجأة هبَّ رجل مكفوف البصر:

ـ يا بن مرجانه! الكذاب أنت وأبوك والذي ولّاك وأبوه.. أتقتلون أبناء النبيّين وتتكلّمون بكلام الصدّيقين؟!

فوجئ الأرقط، فصرخ بغيظ:

ـ من المتكلّم؟.

ـ انا المتكلم يا عدوّ اللّٰه! تقتلون الذرية الطاهرة التي أذهب اللّٰه عنهم الرجس، وتزعم أنّك علىٰ دين الاسلام... واغوثاه! أين أولاد المهاجرين والانصار؟!

استشاط الأرقط، وهتف بجلاوزته كأفعىٰ حانقة:

ـ عليّ به .

هتف الرجل المكفوف البصر بشعار الأزد:

ـ يا مبرور!

وتواثب الرجال هنا وهناك، وانتزعوه من بين أنياب الكلاب.

وقال رجل أزدي بإشفاق:

ـ لقد أهلكت نفسك وعشيرتك

مضت الساعات ثقيلة، وباتت الكوفة تترقب حادثة ما، وبدا قصر الإمارة كوحشٍ رابض في الظلام.

كسرت حوافر الخيل هدأة الليل..كانت تندفع نحو منزل رجل مكفوف البصر.. بصير القلب.

واقتحمت الذئاب داره بعد أن حطّمت الباب، وكانت له صَبيّة فصاحت:

ـ واأبتاه!

ـ لا عليكِ ناوليني سيفي .

ـ ليتني كنت رجلاً أذبّ بين يديك.

كان الرجل يقاتل في الظلام؛ وأحاطت به الذئاب فسقط اسيراً بين الأنياب.

وهتفت ابنته:

ـ واذلاّه! يحاط بأبي وليس له ناصر!

وفي القصر، فرك الأرقط يديه جذلاً، وقال بشماتة:

ـ الحمد للّه الذي أخزاك.

ـ وبماذا أخزاني يابن مرجانه؟!

قال الأرقط بنفاق:

ـ ما تقول في عثمان؟

ـ ما أنت وعثمان، أساء أم أحسن، أصلح أم أفسد؟ ولكن سلني عنك وعن أبيك وعن يزيد وأبيه.

ـ لأذيقنّك الموت.

فقال الازدي بطمأنينة:

ـ لقد كنت أسأل ربي الشهادة من قبل أن تلدك امك، وسألته أن يجعلها علىٰ يدي ألعن خلقه وأبغضهم اليه.

جحظت عينا الأرقط غيظاً:

وأشار الىٰ جلاوزته، وسرعان تدحرج رأس الشيخ؛ وكانت ابتسامة تلوح علىٰ وجهه.

ودعا ابن زياد بأزدي آخر، كان في الطامورة، فجيء به، يخطو علىٰ وهن.. أثقلته السنون والسلاسل والقيود.

قال الأرقط بصفاقة، وقد اجتاحته رغبة في سفك الدم:

ـ ألست صاحب أبي تراب في صفّين؟!

ـ نعم وإني لأحبّه، وأفتخر به، وأمقتك وأباك، سيما الآن وقد قتلتَ سبط الرسول.

اجاب الأرقط باستهتار:

ـ إنك لأقلّ حياء من ذلك الأعمىٰ

وهمّ الأرقط بقتْله، فحدّق به ثم تمتم في نفسه:

ـإن هي الاّ أيام وينفق..

وأردف وهو يصرّ علىٰ أسنانه:

ـلو لا أنك شيخ قد ذهب عقلك لقتلتك

وتساقطت السلاسل من بين يديه. وعندما خطا باتجاه الحرّية كانت عيناه تفيضان من الدمع حزناً. وغبط في نفسه صاحبه الذي رُزق الشهادة بعد أمدٍ طويل.

وعندما غادر الشيخُ القصر كان الأمل يكبر في قلبه الواهن بأن يلتحق بصاحبه ولو بعد حين.

9

كاد قصر الخضراء يهتزّ طرباً، فيزيد بدا ذلك اليوم يطير فرحاً، كان يلاعب قرده باستمرار.. ينظر من نوافذ قصره المنيف الىٰ باب الساعات، فأسراه سيدخلون دمشقَ بين لحظة وأخرىٰ. لم يتمالك نفسه فراح يتغنّىٰ بصوتٍ عالٍ:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل.
لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف ان لم انتقم من بني احمد ماكان فعل.

ولمعت عيناه وهو ينظر الىٰ ثمالة كأس فكرعها. ودبّت النشوة في

رأسه كطوابير النمل.

بدت دمشق في يوم الزينة كمومس تعرض بضاعتها علىٰ قارعة الطريق، ولغط الشاميين يرتفع كطنين الذباب، والذباب لا يفرق بين العسل والنفايات.

أطلّ «صفر» بوجهه الكئيب، وكانت القافلة قد توقّفت في «باب الساعات»، ونعب غراب قبل أن يخفق بجناحيه السوادوين.

تمتم يزيد متشفيّاً وهو يطلّع الىٰ ثارات بدْر، واجتاحته رغبةعارمة بالغناء، فأطلق عقيرته:

لما بدت تلك الحمول واشرقت
تلك الرؤوس علىٰ شفا جيرونِ
نعب الغراب فقلتُ صِح أو لا تصحْ
فلقد قضيتُ من النبي ديوني.

كانت دمشق ترقص علىٰ دفوف أهلها، والأبواق تدوّي في الفضاء، وتذكّر يزيدُ جدَّته (هند)، وهي تصدح غداة «أحد»:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

القافلة المقهورة تشقّ طريقها كسفينة تعصف بها ريح مجنونة.. يتقدّمها رأس آخر الأسباط علىٰ رمح طويل، فبدا كعملاق من عمالقة

التاريخ. ودنا شيخ من فتىً في العشرين من عمره.. كان ينوء بثقل سلاسل القهر. هتف الشيخ:

ـ الحمد للّه الذي أهلككم، وأمكن الأمير منكم .

نظر الفتىٰ اليه، وخاطبه بإشفاق:

ـ أقرأت القرآنَ يا شيخ؟

قال الشيخ مأخوذاً:

ـ بلىٰ

ـ أقرأت: قل لا أسألكم عليه أجراً الاّ المودّة في القربى؟

ـ نعم قرأت ذلك. ماذا تعني؟

ـ نحن القربىٰ يا شيخ... أقرأت: «إنما يريد اللّه ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً»؟

ـ نعم قرأت ذلك.

ـ نحن أهل البيت يا شيخ .

ـ باللّه عليك، أنتم هم!

ـ نعم، وحق جدِّنا رسول اللّه إنّا لنحن هم.

وقع الشيخ.. كأنّ الأرض تهتزّ تحت قدميه.. كان ينتحب ويولْول:

ـ أبرأ الىٰ اللّه ممّن قتلكم..

وما أسرع أن احتوشته الجلاوزة، كحمل سقط بين مخالب قطيع من

الذئاب.

وتساءلت امرأة دمشقية:

ـ من أيّ السبايا أنتم؟

فقالت سكينة بحزن:

ـ نحن سبايا آل محمد

ومضت القافلة في طريقها الىٰ قصرٍ بُني علىٰ الظلم ماله من قرار.

وفي باب القصر توقّفت القافلة، وجيء بالحبال، فربق بها آل الرسول، وضعوا طرَفه في رقبة فتىً في العشرين؛ أنهكته السلاسل والقيود، ثم في رقبة زينب بنت علي! ثم باقي بنات محمد! وكلما تعثّر الاسرىٰ في طريقهم انهالتْ عليهم السياط من كل جانب.

وتذكّرت زينب عزّاً قديماً بدّدته أيام الزمن الخالي.. يوم كانت تخرج يحفّ بها فتية بني هاشم. وها هي الآن تُساق أسيرةً الىٰ أولاد الطلقاء. لشدّما يقسو الدهر.. ولكن كل شيء في عيْن اللّٰه، ولقد أوتيت زينب صبراً دونه صبر أيّوب.

وأُدخلت الرؤوس، وكان رأسُ الحسين علىٰ رمح طويل.

وفي تلك الليلة ضاعتْ آياتُ القرآن وسْط دفوف مجنونة تحتفل بنصر الخليفة الجديد؛ الذي زيّن قرْده الأثير قلادة جديدة من الذهب المرصّع بالياقوت الأحمر.

10

دمشق تغمرها ظلمة.. تلاشت زينتها، وبدت المدينة كراهبة مكتئبة، وعلىٰ باب جيرون كان رأس الحسين مصلوباً، حيث صُلب رأس يحيىٰ بن زكريا.

دمشق صامتة كأنّ علىٰ رأسها الطير. وفي باب الساعات كانت حية من نحاس تُخرج رأسها المثلّث في كل ساعة، فتسقط حصاة في إناء نحاسي، وكان غراب من نحاس يشير الىٰ الوقت دون اكتراث، وها هو الزمن يعود الىٰ الوراء.. يستعيد حوادث قديمة.. قديمة جداً.

كان صوتُ يحيىٰ بن زكريا يدوّي في السجن:

ـ آه من الخليعة العاهرة.. ابنة بابل!

ليرجمها الناس بالحجارة، فتزول الآثام من الأرض، والاّ

فستر تدي السماء ثوبَ الحداد، ويصير القمر بركةً من الدم، وستسقط النجوم علىٰ الأرض، وسيحلّ الرعب في قلوب الملوك.

كانت «سالومي» تصغي بحقد الىٰ كلمات يحيىٰ تـفجّر الغـيظ في صدرها.. وزادها الشيطان فتنة.

همست في أذن هيرودس:

ـ سأرقص من أجلك.

وجنّ هيرودس:

ـ أعطيك ما تشائين. امنحك نصف مملكتي.

أغرقت الجواري «سالومي» بالعطور.

هتفت بخلاعة:

ـ بقدمين عاريتين سأرقص لك.. بقدمين مثل حمامتين بيضاوين سأرقص لك.

هبّ هيرودس من عرشه:

ـ آه... رائع.. عظيم! لقد رقصتِ من أجلي . اقتربي يـا سـالومي سأعطيك كلَّ ما تشتهين.. أُقسم بآلهتي.

خرّت «ابنة بابل» عند قدميه:

ـ أريد أن تقدّم لي في طبق من الفضة... رأس يحيىٰ.

ـ لا.. لا يا سالومي

ـ ولكنك أقسمت بآلهتك!

ـ لن أفعل! اطلبي مني شيئاً آخر. أعطيك نصف مملكتي.

ـ أريد رأس يحيىٰ

لعبت الخمرة برأسه، وانتزعت اصابع (ابنة بابل) خاتم الموت من يده، وسقط رأس يحيىٰ ابن زكريا عند قدمي «سالومي»

في طبَق من الفضة كان رأس يحيىٰ يتألّق في الظلام.

وقالت «سالومي» منتشية:

ـ ان عينيك اللتين كانتا مخيفتين قد أُغلقتا الآن، ولسانك لا يتحرك، لن يقول شيئاً هذا اللسان... أنا سالومي ابنة بابل.. الأميرة اليهودية.. مازلت أحيا.. أما انت فقد مُتّ .. لقد أصبح رأسك ملكاً لي أفعل به ما اشاء. سوف أرميه لنسور السماء.

ارتجف هيرودس لهذه الراقصة تتشفىٰ من يحيىٰ.. صرخ بهلع:

ـ هذه المرأة تعجّ بالشرور...

وخاطب جنوده:

ـ اطفئوا المشاعل.

كان يريد الهروب... وفيما هو يغادر قاعة الحفل، حانت منه التفاتة. كانت سالومي ما تزال تخاطب رأس النبي. كانت تحمل طبق الفضة، وتدور به ـ مجنونة ـ أروقة القصر.

صاح هيرودس بجنوده:

ـ اقتلوا هذه المرأة.

وتدافع الجنود لسحْق إمرأة داعرة، فسقطت ممزّقة، وعلىٰ وجهها آثارُ رعْب وخوف، وكان وجه يحيىٰ يسطع نوراً.

وبدا قصر هيرودس مخيفاً.. نوافذه مشرَعة تعصف بها الريح من كل مكان.

رأس الحسين ما يزال مصلوباً علىٰ باب جيرون، الرهبان ينظرون اليه من بعيد، فيرون ملامح يحيىٰ بن زكريا، فتفيض أعينهم من الدمع حزناً.

11

رأس الحسين في طبق من ذهب بين يدي يزيد... وكان ابن معاوية ينكت ثغر السبط بقضيب في يده.

التفت الىٰ ابن بشير، وكان يوماً ما أميراً علىٰ الكوفة:

ـ الحمد للّٰه الذي قتله

قال الأنصاري بحزن:

ـ قد كان أبوك يكره قتْله.

ـ قد كان ذلك قبل أن يشهر سيفه، ولو شهر سيفه علىٰ أبي لقتله.

ـ وقال رجل رأىٰ النبي وسمع حديثه:

ـ أشهد لقد رأيت النبي يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن، ويقول: أنتما سيدا شباب أهل الجنّة. قتل اللّٰه قاتلكما.

استشاط سليل آكلة الاكباد. وما اسرع أن تناوشته الجلاوزة، وسحل الىٰ خارج القصر.

وكان رسول القيصر يتأمّل رأس الحسين، وفي أعماقه تموج تساؤلات:

ـ إنّ عندنا في بعض الجزر حافر حمار عيسىٰ، ونحن نحجّ اليه في كل عام ونهدي اليه النذور، وانتم تقتلون ابن نبيّكم؟!

نهض النصراني، وتقدّم بخشوع ليقبّل رأس الحسين.

تخيّل نفسه يعانق يحيىٰ بن زكريا، أو المسيح بن مريم.

استشاط ابن معاوية غضباً، فتدحرج رأس النصراني الىٰ جانب رأس الحسين، وسمع من له أذن واعية رأس السبط يتمتم:

ـ لا حول ولا قوّة الّا باللّٰه

والتفت يزيد الىٰ فتىٰ الحسين:

ـ أرأيت صنْع اللّٰه بأبيك؟!

قال الفتىٰ

ـ رأيت قضاءَ اللّٰه

تمتم يزيد بنفاق:

ـ ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم.

قال سليل الأنبياء:

ـ «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الّا في كتاب من قبل أن نبرأها إنّ ذلك علىٰ اللّٰه يسير. لكيلا تأسوا علىٰ ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»

وبدا الفتىٰ ـ وهو في الأغلال ـ كأسد أوثقه الصيادون، فخاطب يزيدَ:

ـ ما ظنُّك برسول اللّٰه لو يراني علىٰ هذه الحال؟!

ونهض خطيب السلاطين، وأمعن في مدْح معاوية ويزيد وسبِّ عليّ والحسين، فصاح به الفتىٰ:

ـ لقد اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق فتبوّأ مقعدك من النار.

وكان رجل شامي ما برِح يتطلّع الىٰ بنات محمد، فنظر الىٰ فاطمة بنت الحسين وتمنّى أن يهبها له الخليفة جاريةً تخدمه.

تعلّقت الفتاة بعمّتها زينب كغريق يتشبّث بعمود من أعمدة سفينة محطّمة تتقاذفها أمواج الطوفان.

قالت زينب بثبات:

ـ لا تخافي. لن يكون ذلك أبداً.

ردّ يزيد متغطرساً:

ـ لو شئت لفعلت.

ـ فقالت ابنة علي:

ـ الاّ أن تخرج عن ديننا.

ـ إنما خرج عن الدين أبوك وأخوك.

ـ بدين اللّه ودين جدي وأبي وأخي اهتديت أنت وأبوك، ان كنت مسلماً.

ـ كذبتِ يا عدوّةَ اللّه.

ـ أنت امير مسلّط تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك.

عاود الشامي الأحمق:

ـ هبها لي يا أمير المؤمنين.

ودّ يزيد لو يسحق هذا الاحمق، فنهره بشدّة:

ـ وهب اللّه لك حتفاً قاضياً.

أطبق الصمت علىٰ المكان، وكان التاريخ يتساءل عن المنتصر في كربلاء؛ يزيد أم الحسين. فنهضت امرأة رافقت الحسين علىٰ قدر تقول كلمتها معبّرة خالدة:

ـ صدق اللّه سبحانه حيث يقول: «ثم كان عاقبةَ الذين أساءوا السوأى أن كذّبوا بآيات اللّه وكانوا بها يستهزئون».. أظننت يا يزيد حيث أخذتَ علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نُساق كما تُساق الأسارىٰ أنّ بنا علىٰ اللّه هواناً وبك عليه كرامة... فمهلاً مهلاً

أنسيت قول اللّٰه تعالى: «ولا تحسبنّ الذين كفروا أنّما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين... فو اللّٰه ما فريت الاّ جلدك، ولا حزت الاّ لحمك. ولترِدَنّ علىٰ رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وآله وسلم بما تحمّلتَ من سفك دماء ذرّيته، وانتهكت حرمته في عترته... وحسْبك باللّٰه حاكماً، وبمحمد خصيماً، وبجبريل ظهيراً، وسيعلم من سوَّل لك ومكَّنك من رقاب المسلمين. بئس للظالمين بدلا. وأيّكم شرٌّ مكاناً وأضعف جنداً.

ولئن جرّت عليّ الدواهي يا يزيد مخاطبتك، اني لاستصغر قدرك. فكد كيدك، واسعَ سعْيك، فواللّٰه لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا، ولا يرحض عنك عارها. وهل رأيُك الاّ فنَد، وأيامك الاّ عدد، وجمعك الاّ بدد، يوم ينادي المنادي: الا لعنة اللّٰه علىٰ الظالمين.

تضاءل يزيد حتىٰ أصبح كذبابة أو يكاد؛ وربّما لأول مرّة أيقن أن الحسين لم يُقتل بعدُ وأنّه ما يزال يقاتل في كربلاء، وها هو الآن علىٰ أبواب دمشق. فلعن في نفسه ذلك الأرقط الاحمق؛ إنه لم يقتلهم جميعاً، ها هي زينب تحمل قلب الحسين وفصاحة علي وهيبة محمد. وها هي الشام تتساءل عن رجل اسمه الحسين وعن امرأة اسمها زينب.

12

غادرت القافلة ربوع الشام في طريقها الىٰ كربلاء، وعرف الدليل الطريق، وراحت القافلة تسابق أمواج الفرات.

وتساءل الأطفال عن جنودٍ ورماح كانوا يحرسون النهر.. يحرمون القلوب الظامئة والأكباد الحرّىٰ من قطرة ماء.

وكانت الطيور والغزلان تمرح في الشواطئ.. ترتاد النهر بحرّية.

ـلو تدري أيها النهر! عن قلوب ذوَتْ عطشاً علىٰ شطآنك!!

كان الحسين يذوب ظمأً.. قلبه يتفطّر، وأنت تجري.. تنثال مياهك علىٰ الشواطئ.. تهبها الحياة، وتمنح الأرض السمراء عشبك الأخضر... وفي عاشوراء تركتَ قلوباً صغيرة تتلوّىٰ عطشاً، وكان «الرضيع» يمدّ يداً صغيرة؛ يطلب قطرة ماء.. ما تزال يده ممدودة

تستفهم التاريخ والانسان.

لاحت ارض كربلاء من بعيد... الارض التي شهدت قبل اربعين يوماً مصرع الحسين.

سهام مغروسة في الرمال.. سيوف مهشّمة وبقايا رماد..

قفزت الحوادث الرهيبة الىٰ الذاكرة. تجسدت أمام العيون. وتردّد صداها في القلوب.

هرولت «الرباب» الى كومة رمل صغيرة.. تضمّ رضيعها الشهيد! احتضنت الرمل.. راحت تحثوه فوق رأسها:

ـ هلمّ اليّ يا صغيري..

وتساقطت قطرات من لبن سائغ فوق الثرىٰ، فامتزجت مع الدموع.

كان الرضيع غافياً في أحضان الأرض التي لوّنها بدمه الرائق؛ وعندما هوّمت عيناها، رأت نافورة ماء تنبجس من نحر الرضيع الشهيد. وكان الاطفال يدورون بين القبور كحمائم برّية تبحث عن أعشاشها.

ووقفت زينب تتأمّل الصمت المهيمن.. وهي تستعيد حوادث يومٍ طويل.. يومَ حطّم الحسينُ شبَحَ الموت... يرسم بدمائه الطريق.. الطريق الىٰ جنات تجري من تحتها الأنهار.. وشواطئ الفرات تختزن

الملح... أمواجه سراب، وظلال الخيل رماد، والنهر حيّة يقهرها الظمأ.

والحسين يهوي بسيفه علىٰ صخور الزمن، فتنبجس منها ينابيع الخلود... والحسين يقهر الموت، ينتزع من بين طواياه الحياة.

من بعيدٍ لاح «جابر».. رجل نصَر النبي، وجاء اليوم يزور سبطه. وكان مع الانصاري عصبة من بني هاشم.. شمّ جابر رائحة النبي فهوىٰ يقبل قبر الحسين:

ـ يا حسين.. يا حسين.. يا حسين.. حبيب لا يجيب حبيبه، وأنّى لك بالجواب وقد فُرِّق بين رأسك وبدنك... أشهد أنك مضيت علىٰ ما مضىٰ عليه أخوك يحيىٰ بن زكريا.

وأجال جابر بصره الواهن بين القبور:

ـ السلام عليكم أيتها الارواح التي حلّت بفناء الحسين وأناخت برحله.. أشهد انكم أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين. والذي بعث محمداً صلى اللّٰه عليه وآله وسلم بالحق نبياً، لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه.

فقال رجل كان معه، وقد اتسعت عيناه دهشة:

ـ كيف ولم نهبط وادياً ولم نعلُ جبلاً ولم نضربْ بسيف؟!

وتداعت في أعماق جابر كلماتٌ قالها محمد من قبل:

ـ سمعت حبيبي رسول اللّٰه يقول: من أحبّ قوماً كان معهم، ومن

احبّ عمل قوم أُشرك في عملهم... والذي بعث محمداً بالحق نـبياً إن نيتي ونية اصحابي علىٰ ما مضىٰ عليه الحسين واصحابه.

كانت الشمس علىٰ وشك أن تغيب وقد بدت حمراء.. حمراء كعين تسحّ دموعاً ثقالاً.

نهض جابر وقد تعفر وجهه بتراب الحسين. تمتم بحديث لحبيبه كان قد سمعه قبل اكثر من خمسين سنة، كان النبي يداعب صبياً في ربيعه الخامس ويقول: حسين مني وأنا من حسين...

هتف جابر وسط الصمت وكان الفرات يجري.. تتدافع أمواجه:

ـ اشهد أني قد سمعت ذلك من حبيبي محمد.

غابت الشمس خـلف الرمـال المـمتدّة، ونـشر المسـاء سـتائره الرمادية فوق الأرض، وانبرى رجال يدقّون أوتاد خيام صغيرة...

فزينب تريد البقاء الىٰ جنب أخيها الحسين.

13

مضىٰ يومان والقافلة التي غادرت الشام وما تزال في كربلاء تسقي رمالها دموعاً ساخنة بعد أن ارتوت من دماء الحسين وسبعين من حواريه.

انطلق الاطفال الىٰ الفرات، وقد بدا والنخيل تحف شاطئيه حورّية نهضت لتوِّها من النوم.

غمس الصغار ارجلهم في المياه، وكانت الامواج تغسل اقدامهم برفق... كأنّ النهر يعتذر اليهم عن يوم حرَمهم فيه من قطرة ماء.

تذكّروا أيام العطش. كانوا ينظرون جهة النهر... وكان النهر اسيراً تحرسه رماح وسهام. تذكروا صرخاتهم.. بكاءهم وهم يصيحون:

ـ العطش.. العطش

وعادت صورة عمّهم «أبي الفضل» وقد اعتلىٰ صهوة جواده.. حمل القربة واتجه صوب الفرات.. كانوا يترقّبون عودته يحمل اليهم الماء.. ولكن عمَّهم ذهب ولم يعد ... وظلّوا ينتظرون.

وبدت السماء في أعينهم صحراء ملتهبة، فلا مزنة تحمل اليهم الودق. وكانت نتف الغيوم تعبر السماء كسفنٍ تائهة.

وقفت زينب تتأمّل الفرات وقد بدا مرثية غارقة في الحزن.. وكانت الشواطئ تبكي.. تسحّ دموعاً فوق الرمال، وحفيف النخيل يردد صوت امرأة تنوح بصمت.

استند طفل الىٰ جذع نخلة سمراء بلون الصحراء.

كان يصغي الىٰ نشيج الفرات وبكاء النخيل.. ينظر الىٰ المياه المتألّقة، فيشاهد نجوماً وقمراً منيراً. هوّمت عيناه فرأىٰ حصاناً ابيض ينبثق من النهر.. ينقل خطاه، والمياه تنثال منه.. ترسم درباً نديّاً.. ورأىٰ الحصان يضرب الأرض.

عمّه «أبو الفضل» يعتلي صهوة الحصان، وينطلق صوب الفرات والقربة علىٰ كتفه.. كان الحصان يصهل، وعمّه يبتّسم، وقد عاد يحمل الماء... راح يعبّ منه دون ارتواء.. وعندما فتح الطفل عينيه، وجد زينب أمامه، وفي يديها قربة تموج بمياه الفرات.

هوت الشمس باتجاه المغيب.. جمرة متّقدة.. جرح راعف...

لحظات، وحلّ الظلام، فتصاعد الأنين.. أنين النهر.. النخيل.. الرمال.. وذهب الطفل يتلمّس طريقه بين نخيل الشاطئ. بدا القمر جميلاً في احضان الماء. رأىٰ وجه أبيه الشهيد منعكساً فيه كمرآة صافية.. ودّ في أعماقه لو يحمله النهر بعيداً الىٰ عالمٍ جميل.. الىٰ مدينة ترقد في أحضان النهر؛ وهناك يلتقي أباه، ثم ينطلقان معاً الىٰ البحر الكبير.

استيقظ الطفل علىٰ صوت من وراء النخيل يناديه:

ـ اين أنت يا بقية أخي؟

ونهض الصغير مسرعاً نحو جهة الصوت. انها عمّته زينب.

ارتمىٰ في أحضانها وكان القمر يغمر الرمال بلونه الفضّي المتألّق.

العيون الساهرة تراقب نجوم السماء والاطفال يناغون القمر.. وتألّقت في الرمال سبعون نجمة أو تزيد.. وانطوىٰ الليل علىٰ جراحٍ روّت الأرض.

وخيِّل للقلوب الكسيرة أن قلباً كبيراً ينبض في أعماق الأرض فاهتزّت وربتْ، وكان صدىٰ صهيلٍ يأتي من جهة الفرات.

وفي قلب الظلام، كان الحسين علىٰ فرسه يتألّق في وجهه نور النبوّات.. يحمل في يديه الورد والزيتون والماء، ويحمل القرآن.

بدت كربلاء ـ تلك الليلة ـ مسرحاً كبيراً يستوعب الحياة... وظهر التاريخ يئنّ من عواء الذئاب.. يستنجد بجواد الحسين. وكان الجواد

يصهل، فتفرّ الذئاب مذعورة.

وينطلق التاريخ.. يعتلي صهوة الجواد.. يسـابق الزمـن. وكـانت الذئاب تطارده لاهثة.

14

استيقظت يثرب كئيبة، وقد صبغت الشمس جدارنها بحمرة ملتهبة، وكان غراب ينعب فوق أحد المنازل.

ارتاعت فاطمة الصغرىٰ، وهي تراقب الغراب، وقد كان يلطخ جداراً يحيط باحة البيت.

بدا البيت خاوياً علىٰ عروشه، فلا أحد يؤنس الفتاة الوحيدة مذ تخلّفت عن القافلة لعلّةٍ أنهكتها.

تركوها وحيدةً، وانطلقوا الىٰ أرض السواد. وكانت تترقب بريداً يأتي من قِبل أبيها، وها هو نذير الشؤم يحطّ علىٰ المنزل.. يملأ الفناء بنعيقه، ويصبغ الجدار بدم هابيل.

وتمرّ الأيام كالحةً سوداء، كأسراب غربان مهاجرة.

وذات صباح حزين، سمعت الصبية صوتاً ينعىٰ والدها العظيم. كان الصوت يتردّد بين منازل المدينة المنكوبة:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قُتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرَّج والرأس من فوق القناة يدار

هبّت يثرب عن بكرة ابيها. اليوم مات رسول اللّه.

واتجهت الجموع المدهوشة الىٰ الصحراء للقاء قافلة عصفتْ بها الأيام.

وخرج فتىٰ في العشرين من خيمته وهو يكفكف دموعه ويشهق في عبرته. ودارت عيناه في رجال صحبوا النبي. كان ينعىٰ اليهم سبط صاحبهم العظيم.

ودخل الفتىٰ بعياله مدينة جدّه... وبكت زينب عندما لاحت لها البيوت من بعيد، فأجهشت بالبكاء. ولأول مرّة بان الانكسار علىٰ وجهها، وهي تردد:

مدينة جدّنا لا تقبلينا فبالحسرات والاحزان جينا
خرجنا منك بالأهلين جمعاً فعدنا لا رجال ولا بنينا

وعندما وصل الركب الىٰ المسجد، أخذت اخت الحسين بعضادتي باب المسجد، وهتفت:

ـ يا جدّاه إني ناعية اليك أخي الحسين.

وصاحت سكينة بلوعة:

ـ يا جدّاه اليك المشتكىٰ مما جرىٰ علينا، فو اللّٰه ما رأيت أقسىٰ من يزيد، ولا رأيت كافراً ولا مشركاً شرّاً منه، ولا اجفىٰ وأغلظ، فلقد كان يقرع ثغر أبي بمخصرته ويقول: كيف رأيت الضرب ياحسين؟!

وناحت الرباب بنت امرئ القيس بقلب كسير:

قد كنت لي جبلاً صعباً ألوذ به
وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامىٰ ومن للسائلين ومن
يغني ويأوي اليه كل مسكين
واللّٰه لا ابتغي صهراً بصهركم
حتىٰ أُغيَّب بين الرمل والطين

ودخل رجل من أولاد طلحة علىٰ بقية آل محمد وسأل شامتاً:

ـ من الغالب؟

فأجاب الفتىٰ وهو يزيح عن العيون حجب الزمان:

ـ إذا دخل وقت الصلاة فأذّن وأقم تعرف الغالب.

اهتز الأشدق شماتة وهو يصغي تشفياً الىٰ مناحة بني هاشم، وتمتم:

ـ واعية بواعية عثمان!

والتفت الىٰ قبر النبي وأردف:

ـ يا محمد يوم بيوم بدر.

واتجه الاشدق الىٰ المنبر، وراحت كلماته تخرج شظايا يتهدّد أهل المدينة بالويل والثبور، ثم اصدر أمره الىٰ قائد شرطته بهدْم دور بني هاشم، فهرول الشرطة يحملون آلات الدمار، فأمعنوا في خرابها حتىٰ غادروها أطلالاً أو خرائب خلّفها الزمن الراحل.

ولاذت بنات محمد بالقبر الشريف، وهي تستصرخ الضمير النائم:

مــاذا تــقولون إن قــال النـبي لكـم
مــاذا فــعلتم وانــتم آخــر الأمـم

بــعترتي وبأهلي بــعد مــفتقدي
منهم أسـارىٰ ومـنهم ضُرِّجـوا بـدم

ماكان هـذا جـزائي إذ نـصحت لكـم
أن تخــلفوني بســوء في ذوي رحـم

كان الحزن يطوف بيوت يثرب، كغيوم رمادية مثقلة بدموع السماء، وكانت عجائز المدينة يحدّثن حفيداتهن عن احزان قديمة لأمّ الحسين يوم ودّع أبوها الدنيا الىٰ الرفيق الأعلىٰ.

وتهامسن عن حزن جديد.. حزن زينب.

ـ ان القدر لن يمهلها كما لم يمهل أمها من قبل.

ـ سرعان ما رحلت الزهراء... التحقت بأبيها..

ـ لن تعيش زينب اكثر من عام.

إنها تذوي لحظة بعد أخرىٰ، كشمعة تذوب في قلب الظلام.

15

نهض الاشدق من سريره المذهّب؛ كان الليل قد ذهب ثلثاه، وهو ما يزال يتقلّب في فراشه يصغي الىٰ صدىٰ مناحة تأتي من بعيد.

ما يزال بنو هاشم ينوحون علىٰ الحسين، وما تزال المـدينة تجـترّ آلامها بصمت... كان الاشدّق فيما مضىٰ يـطرب لبكـائهم، ويـنتشي لمناحتهم، أما الآن فبدأت تؤرقه.. تقضّ مضجعه.. تسلب من عينيه حلاوة النوم. إنه يرىٰ تململ المدينة.. يصغي الىٰ أصوات تلعنه وتلعن بني امية اجمعين، وكان الحسين علىٰ الشفاه.

ضغط الاشدق علىٰ أسنانه حانقاً، وراح يحدّق ـ من خلال نافذة في القصر ـ في الظلام الدامس. تراءت له اشباح في الظلام.. اشـباح مخيفة ليس لها شكل.. تحمل في ايديها سيوفاً وخناجر..

ارتدّ الاشدق مذعوراً، وشعر بفمه يزداد اعوجاجاً، حتىٰ لقد صعب عليه أن يصرخ بحاجبه.

وقعت عيناه علىٰ كأسٍ فيها ثمالة،فافرغها في جوفه دفعة واحدة.

منذ مدّة وهو لا يفارق هذه البيضاء التي تحرق جوفه وتغرقه في بحر من الخيال.

ولكن ماذا يفعل لهذه المرأة؟!... زينب تسلبه حلاوة العيش.. تقضّ مضجعه.. المدينة تستيقظ علىٰ مناحتها.. وهو يخاف لحظة الانتقام. لعن في أعماقه يزيد وابن زياد. كان عليهما أن يقتلا زينب... الحسين لا يموت الاّ بقتل هذه المرأة. إنها ابنة علي.. علي الذي ما يزال الناس يردِّدون كلماته؛ ومحمد يهتف به الناس كل يوم خمس مرّات.

شعر بدوارٍ في رأسه، ورغبة في القيء. لقد اكثر من الشراب هذه الليلة.

استيقظ الفجر علىٰ صياح الديكة. ونعب غراب، قبل أن يغادر وكره. وناحت حمامة بصوت حزين.

صرخ الاشدق بكاتبه بصوت يشبه فحيح الأفاعي:

ـ اكتب الىٰ الخليفة:

«اذا كانت لك بالحجاز حاجة فاقتل زينب».

وانطلق ذئب أغبر يحمل رسالة الموت. الاشدق ما يزال متعطّشاً

للدماء. لم ترووِ دماء كربلاء، فراح ينشد المزيد.

ما تزال هند تلوك كبد حمزة، وتشتهي كبد علي..

كلمات الحسين تدور في بيوت «الانصار» من سكان المدينة ممزوجة بدموع زينب.. تتحوّل الى روح تنشد الحرية..

والذين صحبوا النبي يتذكرون عهوداً قديمة تحت الشجرة وفي العقبة كانوا قد نسوها، وهاهم يستيقظون ليجدوا راية «العقاب» في أيدي الذين حاربوها عشر سنين.

الخلافة تتحول الىٰ ملك، والخليفة يصير هرقل.. والمنبر ينقلب الىٰ عرش... ويكون معاوية أمين الوحي ، ويُشتم أبو تراب ليل نهار، ويعود طريد الرسول الىٰ المدينة، وتُنفىٰ زينب من كل الحجاز.

استوت «العقيلة» فوق ناقتها، وألقت نظرة حزينه علىٰ ربوع مدينة جدّها، متوجهة صوب مصر.

قالت امرأة هاشمية، وهي تودّعها:

ـ لقد صدق اللّٰه وعده: «وأرثنا الأرض نتبوأ من الجنّة حيث نشاء» فطيبي نفساً، وقرّي عيناً، وسيجزي اللّٰه الظالمين.

وانطلقت سفينة الصحراء تقطع الفيافي.. تحمل امرأة اسمها زينب، امرأة لن يمهلها القدر سوىٰ سنة واحدة، فقد فاضت روحها في أول

ذكرىٰ لعاشوراء.

في الفسطاط قلب مصر، مكثت زينب عاماً واحداً. وعندما أغمضت عينيها الدامعتين، تفتّحت ملايين العيون، وملايين القلوب علىٰ نداء الحرّية. فما يزال الحسين يقاتل.. يهتف في سمع الزمن:

ـ إني لا أرىٰ الموت الاّ سعادة .... والحياة مع الظالمين الاّ برما.

وما يزال التاريخ يردد كلمات قالتها زينب في كربلاء:

ـ لقد اخذ اللّٰه ميثاق أناس لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السماوات. انهم يجمعون هذه الأعضاء المقطّعة والجسوم المضرّجة، فيوارونها وينصبون بهذا الطف علماً لا يُدرس أثره، ولا يُمحىٰ رسمه علىٰ كرور الليالي والأيام.

16

مرّت أعوام والمهرة التي وُلدت لحظة عـاشوراء أضـحت فـرَساً تسابق الريح.. ودارت الأرض دوْر الرحىٰ.

يثرب تلعق جراحها العميقة. أغار عليها جند الشام واستباحوها ثلاثة أيام بلياليها... قُتل رجال كانوا حوْل النبي... كانوا سبع سنابل خضر؛ في كل سنبلة مائة حبّة.

السيوف الأموية تحصد بلا رحمة حتى رؤوس الاطـفال. بـقرتْ بطون الحبالىٰ، واستبيحت ألف عذراء.. وبايعت المدينة يزيداً، جارية ذليلة.

عاد أبوسفيان يقود القبائل وهو يهتف: أُعـلُ هُـبل؛ والاحـزاب يعبرون خندق النبي بعد أن ردموه في كربلاء، ونادىٰ منادٍ.

ـ يا أهل يثرب لا مقام لكم

المدينة تحصد بذار «السقيفة».

وفي مكة، كانت المجانيق تقصف الكعبة من فـوق رؤوس الجـبال فاحترق جانب منها.. الشيطان يصب حممه فوق بيت اللّٰه .. وجـند الشام يرمون الكعبة بكتل النار الملتهبة، ثم يتجهون اليها وقت الصلاة.

ويزيد في رحلة صيد أسكرته نشوة الانتصار، والأرقط مـا يزال جاثماً على صدر الكـوفة يسـومها سـوء العـذاب.. يـذبح أبـناءها ويستحيي نساءها.

الضمير الذي خدّره «معاوية» يستيقظ في قلب الليل، يـتململ.. يبحث عن جحيم يتطهر فيه.. يتخفف من إثم رهيب حوّل الحياة الىٰ ذلّ لا يطاق.

لقد وُلد الحسين من جديد.. وها هي بنت محمد تقدم وليدها الىٰ الدنيا شعلةً متوقِّدة يحملها الأحرار في كل زمان ومكان.

الافاعي ما تزال تتلوّىٰ في قصر الأمارة.. تلدغ كل من يصادفها وقد فرّ الأرقط الىٰ الشام بعد أن هلك سيّده، وظهر في الكوفة رجل يصرخ: يالثارات الحسين.. رجل ذرّف علىٰ الستين؛ يدعىٰ «المختار»

قال ابن سعد محذِّراً:

ـ ايها الامير ان المختار اشدّ خطراً من سليمان، فابن صرد قد خرج

من الكوفة يروم قتال أهل الشام.

وقال الابرص:

ـ اجل ايها الامير أرىٰ أن تودعه السجن.. أو تقتله.. نتغدىٰ بـه قبل أن يتعشىٰ بنا.

لا احد يدري كيف استيقظت الكوفة.. نفضت عن نـفسها العـار وهبّت بشعارٍ كانت قد نامت عنه خمس سنين؛ يوم كان مسـلم بـن عقيل سفير الحسين ينادي في دروب الكوفة وحيداً: يا منصور أمت

هبّت الكوفة تصرخ مجنونة: يالثارات الحسين.

وسقط قصر الامارة في أيدي الثائرين؛ فيما فرّ الجلادون لايلوون علىٰ شيء.

كان الابرص قد فرّ باتجاه الجنوب مشدوهاً يفكّر بكلمات قـالها الحسين في كربلاء:

ـ والله لا تلبثون بعدها الّا كريثما تركب الفرس حتىٰ تدور بكـم دور الرحىٰ وتقلق بكم قلق المحور.. عهد معهود عـهده الي أبي عـن جدي رسول الله .

وتجسدت صورة الحسين وهو يرفع يديه الىٰ السماء كنبي يستمطر اللعنة علىٰ قوم كذبوه:

ـ اللّهم احبس عنهم قطر السماء وابعث عليهم سنين كسني يوسف

وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبّرة.. واللّٰه لا يدع احـداً منهم الا انتقم لي منه.. قتلة بقتلة، وضربة بضربة، وانـه ليـنتصر لي ولأهل بيتي واشياعي.

تحققت نبوءة الحسين. صارت المهرة فرساً تُـركب، تسـابق الريح وظهر «المختار الثقفي» في قبضته سيف الانتقام.

فرّ الجلّادون.. تحولوا الىٰ فـئران خـائفة اخـتبأت في جـحورها ترتجف، وكان سيف المختار يطاردها.. يحقق نبوءات الحسين.

وفي ساعة غضب مقدس، تحـولت جـحور الفـئران الى انـقاض وركام.

قال المختار وهو يودّع «ابن الاشتر» قائده الشجاع

ـ بقي رأس الافعىٰ.. بقي رأس الارقط :

هزّ ابراهيم رايته بشدّة.

تحرّك سبعة آلاف مقاتل يحملون في صدورهم قـبساً مـن روح الحسين، وصهيل فرس غاضبة تدوّي في الاعماق.

17

غادر ابن زياد الشام علىٰ رأس جيش تجاوز الثمانين الف مقاتل يحملون سيوفاً أموية تنذر الكوفة بالويل والثبور يقودها «الارقط» وقد بايع مروان علىٰ الطاعة... ومروان طريد رسول اللّٰه اموي سامريّ منعه النبي أن يغادر الطائف. ولمّا اغمض النبي عينيه جاء مختبئاً تحت عباءة عثمان.

وتمرّ الاعوام تلو الاعوام، واذا بالطريد يسرق منبر محمد في وضح النهار.

سقطت الموصل في قبضة الارقط... وعلىٰ ضفاف نهر الخازر في ضواحي الموصل التقت فئةٌ قليلةٌ فئةً كبيرةً وحدثت ملحمة رهيبة.. كان الاشتر يقاتل بشجاعة ابيه.. يستعيد بطولاته علىٰ شاطئ الفرات

بصفين وليشهد «الخازر» أن الولد علىٰ سرّ ابيه.

طاحونة الموت تدور عند ضفاف الخازر، وسقط رأس الارقط وتمزّقت جيوشه.

كان المختار جالساً في القصر عندما وضع بين يديه رأس الارقط.. كان يشبه رأس الافعىٰ يسيل من انيابه الصديد.. عيناه زائغتان تعكس آثار رعب ودناءة.

وتساقطت رؤوس الجلّادين.. رأس الأبرص ورأس رجل كان يحلم بالري وجرجان، رأس سنان و «حرملة» ورؤوس عفنة كثيرة.. سقطت كما تتساقط الثمار الفاسدة عند هبوب الزوبعة وفي فجر يوم باسم، وقد تطهّرت الكوفة من رجس الشيطان. كان فارس قد غادرها توّاً يحمل معه رؤوس الأفاعي، ويكاد أن يسبق الريح، وجهته «يثرب» المدينة المنكوبة.

دخل الرجل الكوفي منزل علي بن الحسين وهتف مبهور الانفاس:

ـ يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الوحي انا رسول المختار اليكم ومعي رأس ابن مرجانة ورأس ابن سعد و... .

وعادت الفرحة الىٰ المدينة.. تجدّدت ذكريات بدر يوم تساقطت رؤوس الشرك في «القليب».

وفي تلك الليلة تذكرت نسوة بني هاشم الحنّاء، وعاد المرود يدور

في العيون يمسح آثار حزن متجدد.. وشقّ المشط طريقه في ليل الشعر ليل حالك أو ربما اشتعل شيباً. وهوىٰ فتىٰ الحسين ساجداً للّٰه الذي يمهل ولا يهمل:

ـ اللّٰهم وفّقه لما تحب وترضىٰ واغفر له في الآخرة والأولىٰ.

عادت البسمة تطوف في بيوت بني هاشم.. تمسح الدموع، وتمنح الأطفال الأمل، والنسوة كحلاً ومراود... ومن بين كل العيون بقيت عينان حزينتان تدمعان ..

فلقد اغمضهما القدر بمصر قبل أن تريا تساقط رؤوس الجلّادين.

غير ان التاريخ ما يزال يردد بطولات امرأة اسمها زينب.